الباب الأول:

روافد المنهج

١- أثر الكلمة

ثمة طائفة من العظماء والعلماء تكون إنجازاتهم جزءا من حياتهم، فلا يكون لهذه الانجازات انعكاس على سيرهم إلا بقدر ما يأخذ أحدهم من نفسه ليعطي في سبيل بناء صرح فكرته أو علمه، وثمة من يكون في سيرته مناقضا لما تتحدث عنه إنجازاته، ولكن هناك طائفة أعلى... إذا شئتَ أن تعرف عن إنجازاتهم وأعمالهم، فلن تجد لها صورة أصدق من تلك التي تلتقطها من خلال سيرهم وفي ثنايا حياتهم، فإن لكل حدث صدى في نفوسهم وفي أعمالهم، فهم يسعون دائما في بناء تلك الشخصية مهما يكن مبلغها من علم وعمل، ولا يغرهم أن يشار إليهم بالبنان، فإن حياتهم كلها طلب لليقين، وتقويم لما اعوج، وسعي حثيث لبلوغ الغاية في كل طريق مستقيم... أولئك الذين تجد أعمالهم منقوشة في حياتهم، فإذا نظرت فيها وأنعمت النظر استقام لك ما اختل من صور أعمالهم، واتضح لك ما رأيته مبهما قبل أن تضم السيرة إلى العمل. وهذه هي أرقى صورة للإنسان على وجه الأرض، حين يصير صورة من علمه، يكابد المشاق من أن أجل التعلم، فإذا علمَ جاهد نفسه وحملها على العمل بمقتضى ما علمت... فإذا نظرت رأيت العلم أنى ذهب يتبعه العمل في أسمى تجلياته، وبهؤلاء قامت الحضارات، وعلى أكتاف هؤلاء الصادقين المخلصين تقوم أركان الإنسانية السامية، متى اختلَّتْ أوشك أن ينهدم البناء فيصير ركاما.

فمن بين رجال هذه الطائفة يقف شيخنا محمود محمد شاكر (١٣٢٧ - ١٤١٨ هـ/ ١٩٠٩ - ١٩٩٧م) رحمة الله عليه، حاملا لواء العربية، حاميا لذمار الأمة، حارسا لتاريخها وأعلامها وأقلامها، واقفا في وجه العواصف والرعود، قد أمسك بيمناه قلما

يشق به إلى مجد الأدب وحياته طريقا أبصرها بما تهيأ له من نور المنهج السوي، ووضوح الغاية وقوة التحمل... فما راعه ظلام الطريق وقد أناره - بعد فضل الله- بعزمه، ولا أثناه خوف المهالك وقد اتقاها بعد عون الله بحزمه، فصار منارة للمستهدين في ميدان الأدب، دليلا للحائرين إلى طريق الحق، إماما للسائرين إلى نصرة الأمة، ودفع الوهن عنها، ورد كيد الكائدين، وبناء صرحها المتين الذي لن تطاله إذا ما علا يد لا تعيش إلا على أنقاض الحضارات، ولن تهدمه من داخله أيد لم تعرف معنى للحياة إلا تحت أذيال الغالبين ولا سعادة إلا في فضلاتهم.

فإذا شئنا أن نتحدث عن منهج «التذوق» لدى الشيخ؛ وهو باب مفتوح من القول لا يكاد يحيط به إلا قليل من صفوة أهل العلم، ولا يستطيع وصفه للناس على نحو يقرب صورته إليهم فيتمثلوها، إلا من شرب من معينه، وتشرب أصوله وامتداداته، ثم كانت له القدرة على البيان بحيث يوضح ما أبهم، ويشرح ما استعجم، ويستخرج منه ما خفي... وهذا ما لا يستطيعه كل أحد[1] فإن كل ما يمكن أن يقال عن المنهج في شقيه: النظري والتطبيقي، لن يكون واضحا كل الوضوح إلا حين نقدم بين يديه صورة لصاحبه الذي استخرج كنوزه المدفونة، وعانى حياته كلها في سبيل أن يستقيم هذا المنهج، فإن الشيخ -رحمة الله عليه- جزء من صورة هذا التذوق لا يستقيم فهمها، ولا تتضح معالمها كاملة في أبهى حلة إلا بوجود هذا الجزء عتيدا، يسهل علينا أن نعود إليه عند كل نظرة، وعند كل محاولة لكشف الحجب. ذلك أن ما عاناه في سبيل المنهج، وما لقيه في رحلته بحثا عن الحق، هو الذي أبلغ المنهج تلك المنزلة التي هو فيها، وكل معاناة تكبدها في سبيل تذليل الطريق، حقيق

(١) ولا أدعي أني بلغت منزلة من يملك القوة والمادة للحديث عن المنهج كما وصفت، ولا أدعي أني اقتربت منها، ولكني أجتهدُ فأخطئ فأصيب، والله الموفق.

بكل سالك لها من بعده أن يكون منها على بينة، لأنها طريق وعرة موحشة ذات مفاوز، لا يكاد يمر منها المتذوق فيهذبها ويميط عنها الأذى المتداعي عليها من كل وجه، ولا يكاد يفسح لنفسه طريقا يخترق هذا الجبل الشامخ الذي يفصل بينه وبين ينابيع التذوق وجنانه القائمة من ورائه حتى تعود الطريق فتنسد كما كانت من قبل، وكأن الباب المنفتح إلى جنانه لم ينفتح إلا لصاحبه، فلا يرى منه الناس إلا ما يريهم الداخل الظافر، ثم لا يكون منهم إلا أن يتذوقوا من الثمار التي جناها بعرق جبينه الداخلُ... فإما كانَ السالك اللاحق ذا عزم فيلين الصخر له بعد معالجة، وإما تراخى فارتجى أن يلج الباب فهو:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً ليُوهِنَهَا فَلَمْ يُنِلْهَا، وأوْهَى قرْنَهُ الوَعِلُ

ولكي تكون الصورة واضحة المعالم كما قلنا، فسنقف في هذا الباب الأول من المدخل على قصة التذوق عند الشيخ، ولا نعني بها أن نقص عليك سيرته، كما يفعل أكثر من يتحدث عن العظماء، فذلك متوفر في كتب ودراسات معروفة، فمن أراد أن يقرأ سيرة الشيخ من هذا الوجه فليقرأها هناك[1]، إذ لا معنى لإعادة شيء يمكن أن يقرأ في مكان آخر بشكل أكثر تفصيلا وتنظيما.. ولكن عملي في هذا الباب أن أقف على لحظات خاطفة من هذه السيرة، كان لها أثر بالغ في صياغة المنهج من بعدُ، وكانت هي المحاور الأساسية التي اتكأ عليها سَيْرُ البحث والنظر والتحقيق، فهي المفاتيح التي تُفتح بها مغاليق المنهج، وتستبين بها الطريق لسالكها من بعد الشيخ. وسوى ذلك فليس على طريق البحث فنتتبعه، وإن كانت هناك أمور كثيرة في سيرة الشيخ - مما كان سيزيد

(١) تكاد تكون كل الدراسات التي أنجزت عن الشيخ مصدرة بسيرته، وأغلب هذه السير مأخوذة من مصدرين أصليين، هما: «دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين» والثاني «من أعلام العصر» لأسامة أحمد شاكر..

الصورة التي نحن بصددها وضوحا، ويبعث في أجزائها المتعالقة حياة أكثر، ويجعل وجهها أنضر - ما يزال الغموض يلتف حولها، وما تزال الحجب تحول بيننا وبينها، قد تراخت عليها أستار الزمنِ وصرامةِ الشيخ وحِدَّتِه وصمتِ العارفين أو انشغالهم بأمور صارفة لهم عن تحقيق القول في بيان وجهها ومدِّ الباحث الغواص بأسباب تصل بينه وبينها، حتى يستطيع أن يكشف عنها اللثام فتظهر في كامل زينتها. وهذه الخيوط المفقودة من بعض الأحداث الهامة المؤثرة في حياة الشيخ والمنهجِ من ورائه؛ خليق بالسائر في طريق المنهج والساعي في مراقي التذوق أن يقف عليها متأملا مستنبطا متزودا ليواصل طريقه وقد أَمِنَ بعض غوائلها وحلت عنه بعض مبهمات وسائلها. ولكن... عسى أن يصدق طرفة في هذا الأمر أيضا:

سَتُبْدِي لَكَ الأيّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً وَيَأْتِيكَ بالأخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

١- البيئة العلمية الحية:

من أول المؤثرات في مسيرة محمود محمد شاكر الحافلة؛ أنه فتح عينيه على بيئة علمية خالصة قل لها نظير، امتزج فيها العلم بالعمل امتزاجا ظاهرا لا يخطئه ذو بصر، وارتبط فيها العلم بالجد والاجتهاد والقوة في الأخذ والبلاء في الجهاد.

فأبوه محمد شاكر (١٢٨٢ - ١٣٥٨ه/ ١٨٦٦ - ١٩٣٩م) وكيل الأزهر وصاحب مشروع إصلاح المحاكم الشرعية، وقاضي قضاة السودان -حيث تمكن من تطبيق تصوره الإصلاحي للمحاكم الشرعية-، وشيخ علماء الإسكندرية الذي جاهد في سبيل إصلاح التعليم آنذاك، ثم هو الذي ترك المناصب الحكومية كلها من بعدُ وفضلَّ أن يعيش حرَّ الرأي عزيز النفس لا يقيده شيء من أمور السياسة فيحد من انطلاقه في سبيل نشر العلم والإصلاح، وبلغ به هذا القرار أن يرفض أن يتولى مشيخة الأزهر التي

عرضت عليه بإلحاح -وهي يومئذ تعادل منصب رئيس الوزراء في زماننا هذا الفاسدِ-، فرفض أن يسخط العلم والعلماء بإرضاء الساسة وأهوائهم..

وكان معروفا بقوته في آرائه ومواقفه، ينتصر للحق وينتفض ضد الباطل مهما كانت مكانة من ينتقده، لا يثنيه شيء عن الانتصار لما يراه حقا وإذاعة رأيه دون خوف من أحد أو تردد، فهو الذي انتفض في وجه الخطيب الذي أراد أن يمتدح السلطان حسين كامل (١٨٥٣ - ١٩١٧ م) ويثني عليه حين كرَّم طه حسين -لما تقرر إرساله في البعثة الطلابية التي سافرت إلى فرنسا، وقد استقبله الملك استقبالا عظيما وأهدى له وأكرمه- فخانته فصاحته التي طالما تحدث عنها الناس، وزل زلة عظيمة أسقطته من عليائه إلى حيث لا تقوم له من بعدُ قائمة. قال في معرض حديثه عن التكريم «جاءه الأعمى فما عبس في وجهه وما تولى».. فلما انقضت الصلاة قام الشيخ محمد شاكر وأعلن في الناس أن صلاتهم باطلة، وأن عليهم أن يعيدوا صلاة الظهر، فأعادوها... وكان لذلك أثر امتد حينا من الدهر، ثم انقطع بظهور الحق على الباطل.

وأما أخوه الشيخ أحمد محمد شاكر (١٣٠٩ - ١٣٧٧هـ/ ١٨٩٢- ١٩٥٨م) فهو العلامة المحدث المجدد المحقق / الذي طبقت شهرته الآفاق، وذاع صيته بين أهل كل علم وفن/ له قدم راسخة في علوم كثيرة، وإسهامات فريدة في التأليف والتحقيق والاجتهاد والتعليق. وهو أشهر من أن أصفه وآتي على ذكر آثاره. ولكن حسبك أن تجد تحقيقاته في الفقه والأصول والحديث والتفسير والأدب في الطبقة الأولى من طبقات أهل التحقيق، والتطبيق هنا تطبيق مبني على الجودة والإتقان؛ لا على زمن ولا تخصص معين... وحسبك أن تنظر في مكتبة تحقيقاته المتنوعة فتجد فيها هذه الدرر -تمثيلا لا استقصاء-: «الرسالة» للإمام الشافعي، وشرحه على مسند الإمام أحمد (١٥ جزءا)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة،

و«لباب الآداب» لأسامة بن منقذ، ثم «المفضليات» و«الأصمعيات»/ شاركه في تحقيقهما المحقق الفذ عبد السلام محمد هارون رحمه الله (ابن خاله).

وهو من الرعيل الأول الذي أعاد لعلم الحديث بريقه في العصر الحديث، وله اجتهادات كثيرة عز لها نظير، ومواقف تظهر صلابته وقوته وحجته[1]، واندفاعه في نصرة الحق وأهله. مع اهتمام ظاهر بتراث الأمة وعلمها، وهمة عالية في الحفاظ عليه، وفي نشره وإذاعته، وفي الدفاع عنه حين تصوب إليه سهام الحاقدين والجاهلين والمفسدين.

ولم يقتصر الأمر في هذه البيئة المثمرة المعطاء على الأب والأخ الأكبر، بل كانَ لبعض إخوانه الآخرين مجال في العلم والأدب، وإنما أخفى أمرهم أن كان قدرهم أن يكونوا نجوما في دار أشرقت منها شموس ثلاثة، وشمس واحدة تخفي كل نجم وكوكب حين تشرق، فكيف والشموس ثلاثة/ يشرقن في سماء واحدة؟

وكانَ بيت أخواله بيت علم وأدب واهتمام بالعربية لم ينقطع أثره يوما، فجده –من جهة أمه– هو شيخ العربية في زمانه: هارون بن عبد الرزاق (١٢٤٩ –١٣٣٦هـ/ ١٨٢٣ – ١٩١٨م)، وهو جد شيخ المحققين ترب أبي فهر عبد السلام محمد هارون (١٣٢٦ – ١٤٠٨هـ/ ١٩٠٩ – ١٩٨٨م) وهو أشهر من أن نُعَدِّد مناقبه وأعماله.

وإنما أوردت هذا لتعلم أن الفتى محمودا، وجد أمامه كل ما يمكن أن يمهد لظهور أديب فذ كالذي كانَ، فإنه نشأ في بيت لا سلطة فيه إلا للعلم، وفي محيط صغير أينما

(١) قد كانت للشيخ رحمه الله مواقف عظيمة، ومشاهد قام فيها موقفا مشهودا، فكانَ إذا خاض معركة ظفر بها لانتصاره للحق دائما، على أني أرى أنه –رحمة الله عليه– كان إذا دخل في باب السياسة الفاجرة فاجتهد فيها أو أفتى أو ناقش أو أدلى بدلوه في بعض الأحداث التي تفتعلها السياسة وجدتَ بينه وبين أخيه شيخنا محمود –رحمة الله عليهما– بونا شاسعا، إذ كان أبو فهر في باب السياسة متمرسا بصيرا نافذا ببصيرته وخبرته في أعماق السياسة، مدركا لدسائسها، عالما بما يجري في دهاليزها بين الساسة وأشياعهم، وبين هؤلاء الساسة ومَن يحركهم مِن خلفهم.

توجه فيه رأى الكتابَ، ورأى الحديث عن الكتاب، ورأى تأليف الكتاب، ورأى تحقيق الكتاب... وحيثما ألقى السمع، فإنما يتلقى أحاديث العلم، وأصداء المجالس/ يتناقش أهل العلم فيها ويتجادلون، وأصوات القراء بين مقبل على كتاب يقرأ منه يناجي نفسه، وآخر يقرأ على شيخ فصولا من مؤلف، وآخر يشرح للمتحلقين حوله متنا أو كتابا. وكل هذا الذي ذكرناه؛ إنما يبدأ من الكلمة وينتهي إليها، تلك الكلمة التي كانت سرا من أسرار الحياة عند الشيخ، انغرس في قلبه أثرها وهو في داره، وحاولت صوارف أن تحوله عن الانشغال بها والانصراف إليها بقلبه وجوارحه إلى حيثُ لا يبقى لها في نفسه أثر إلا مثلما تؤثر الكلمة البليغة يلقي بها رجل عربي ذو منطق حسن وفصاحة نادرة وصوت رخيم، فيتلقاها منه رجل أعجمي لا يفهم من العربية إلا ما يفهمه أي إنسان من لغة الحيوان فإذا هي عندهُ مثل أي كلام، بل مثل أي صوت لا يفرق بين أصوات البهائم العجماء وألفاظ البلغاء والفصحاء. لكنه عادَ إليها متمسكا بها وبسحرها الآخذ بجوارحه بعد أن كادت تنفلت منه، واسترجع بعودة الكلمة العربية في نفسه حياته التي كادت تُسرقُ منه، فبدأ مع الكلمة عهدا جديدا هو الذي كان له أثر عظيم في ما صار إليه أمره من بعدُ لما استقام له المنهج، وتذللت له طرق التذوق.

هذه الكلمة هي التي تربط بين المرء وعوالم أخرى خارجية، تنقل إليه معاني محسوسة وأخرى معقولة لا يراها، وهي التي بني عليها المجتمع وبنيت بها الحضارات، فهي سر من أسرار الحياة كما ذكرنا، فمن التمست إلى قلبه سبيلا واطمأن إليها وأسلم لها نفسه أسلمت له قيادها، فكانت له حياة أخرى يعيشها/ هي أطول وأمتع وأرفع من الحياة العادية التي يعيشها الآخرون، ولعلها تكون أقسى أيضا، ولكنها قسوة لا تفارقها متعة تصرف الحي فيها عن العذاب الذي تُسْكِنُهُ فيه حين يجاهد في كشف أستارها، ويبحث في طواياها عن خبيء أخبارها، وفي مكامنها عن أسرارها وأنوراها.

ولا بدَّ أن هذا الجو العلمي المفعم بالحيوية والنشاط يُغَذِّي في النفس حب الكلمة، ويزين لها الوقوع في أسرها، فيتولد فيها حُبٌّ يزداد مع توالي الأيام، كلما اقترب من منبع الكلمة ازداد تعلقه بها، وكلما أحسن تلقيها أحدثت في نفسه أثرا عظيما، حتى إنها لتصرف إليها قلب الصبي/ لم يعرف بعدُ من تصاريفها ووجوهها إلا قليلا، فيتعلق بها ويجاهد نفسه ليكون قادرا على أن يتلذذ بها مستمعا ومتكلما وقارئا، و«من ذاقَ عرف». وقد كان من أثر هذه البيئة المحيطة بالشيخ -وهو يومئذ صبي- أن تعلق بالكلمة وشغف بها أيما شغف.. وقد قال وهو يتحدث عن تلك العلاقة الوطيدة في تلك السن المتقدمة: ((فمنذ بدأت أعقل بعض هذه الدنيا، وأرى سوادها وبياضها بعين باصرة، شغلتني «الكلمة» وتعلق قلبي بها، لأني أدركتُ أول ما أدركتُ أن «الكلمة» هي وحدها التي تنقل إلي الأشياء التي أراها بعينيَّ، وتنقل إلي أيضا بعض علائقها التي تربط بينها، والتي لا أطيق أن أراها بعينيَّ. وكان هذا إدراكا مبهما، لا تستطيع طفولتي يومئذ أن تستبينه كل الاستبانة. ولكني لا أزال أذكر لمحا كالوميض يلوحُ ويخفى، من عهد أول طفولتي، إذ كنتُ أسمع من كان في بيتنا حين يتحدثون بطلاقة وذلاقة، لا يطيق مثلها لسان غض قريب عهد بصمت الطفولة الطويل، وبعجزها المتلهف إلى الإبانة، وبنزاعها الدائب إلى محاكاة الكبار))[1].

وهذه كلمة رفيعة دقيقة الوصف، كأنها صورة منتزعة من لحظة من لحظات تلك الأيام الخالية، التقطها فتى طري العود متوقد الذهن، وهو في مجلس من مجالس العلم والأدب التي كانت تقام في بيته بقلبه وعقله وأذنه، فذابت في أغوار نفسه، لتنبعث من بعدُ فتبدأ مفعولها الذي لا ينتهي ولا يتوقف... وهذا الذي أدركه الفتى في أول طفولته

(١) أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٣، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م، ص: ٤٤٥.

قلما يتهيأ إدراك مثله لأحد، لأنَّه إذا تمَّ فسيصرف قلب الصبي عن كل الملاهي التي يشغلُ بها الأطفال أوقاتهم، وتصير متعته في مغازلة هذه الكلمة ومداعبتها وملاعبتها، ثم ينتبه فإذا طفولته ضرب مختلف ليس فيها من عوالم الطفولة إلا صغر السن والشغف بمحاكاة الكبار.

هذا هو المشهد الأول من تلك المشاهد المؤثرة في الشيخ، والكلام فيه يتسع لولا أن المجالَ ضيق، والشواهد عليه كثيرة تؤدي معنى واحدا؛ هو هذا الذي ذكرنا من تأثير البيئة والمحيط القريب في تكوين شخصية الشيخ رحمه الله، وتزويده بالقوة التي تكفي لينطلق في درب العلم والتحصيل بأحسن ما يمكن أن يتزود به مسافرٌ بعيدُ الغاية. وقد أغفلنا في هذا الباب الحديث عن نفس الفتى وتوقد ذهنه واستعداده الفطري وذكائه وقوة ملاحظته، إذ أن ذاك مما لا تستقيم الصورة إلا به، ومن حيثُ إنه لا يمكن أن نتحدث عن أثر المحيط في صقل موهبة لم توجد أصلا، وبصيرة لم تتوقد من قبلُ... فمن أجل هذا لم نحفل بتفصيل القول فيه، ثم لأن منهجه يدل دلالة قاطعة على هذا، تجعل من صاحبنا نموذجا فريدا/ نسيجَ وحده، عجزت النساء أن يلدن مثله.

وليس من عملنا في هذه الأبواب أن نفصل كل حديث، ونحشد كل الشواهد والنصوص في الاستدلال على فكرة ما، فإنما هي الإشارة الخاطفة، والتلميح الدالُّ والتصريح الموجز، فكن كما قال الشاعر، فإنما هذا البيانُ:

بِضَرْبَـةِ نَعْـتٍ/ لَمْ تُعَـدْ، غَيْـرَ أَنَّنِي عَقُـولٌ لأَوْصَـافِ الرِّجَـالِ ذَكُورُهَـا

٢- الإقبال على الشعر والأدب:

كان طبيعيا أن يكون تأثير الكلمة في نفس الفتى دافعا له ليتطلبها من منابعها، ويسعى إليها في مواطنها. فإن تلك الأحاديث التي كانت تتم في المجالس التي يحضرها سواء في بيته أو خارجه، لا بدَّ أن تزرع في نفسه فيما زرعت أصداء لكلمات وقعت في نفوسهم موقعا حسنا، فهم يستحسنونها، ويستعذبونها. ينفرد الواحد منهم بنفسه يقرأ ويحس ويتلذذ، حتى إذا لقي أصحابه ألقى إليهم بما استعذب من كلام، وما استلذ من رفيع البيان... وكذلك كان أمر الشيخ، فإنه لم يلبث أن أبصر طريق الكلمة الرفيعة، وجاهد ليبلغ نبعا من منابعها فيشرب منه صفوه كما شرب الناس، ولكن الوصال كان طريفا أول الأمر، إذ كان الفتى - رغم ذلك الأثر الذي أحدثته الكلمة في نفسه أول الأمر- منصرفا عن العربية/ مفتونا باللغة الإنجليزية فتنة أنسته عربيته أو كادت... حتى وصل به الأمر أن سقط في امتحان «الشهادة الابتدائية» بسبب ضعفه في العربية، وهذا ما عنيناه حين تحدثنا عن الصوارف التي أريد له أن تدفعه وأبناءَ جيله عن لغتهم، وتربطهم بلغة أخرى هي لغة المستعمر الغالب، حتى لقد بلغ الفتى مبلغا من الضعف في العربية يقابله قوة واجتهاد ومثابرة في تحصيل اللغة الأخرى... ولكن هذا الضعف، كانَ قدرا كُتبَ به للفتى أن يعيد النظر في لغته ويغوص في بيانها حتى تأخذ بلبه من جديد، ويتوغل حبها في قلبه؛ حبا كان له أظهر الأثر في مسيرته وتحولاته الكبيرة في حياته. ولندعه يقص علينا قصة هذا التحول الأول، الذي دفعه إليه هجرٌ؛ تحول بعد ذلك إلى وصال لا ينقطع، وفتح له التفرغ بابا إلى قدره الذي سيق إليه سوقا عنيفا أول أمره، يقول رحمه الله: ((كان من رحمة الله بي، أن أدركتني ثورة مصر في ١٩١٩، وأنا يومئذ في السنة الثالثة [الابتدائية].

فلما كانت السنة الرابعة سقطت في امتحان "الشهادة الابتدائية"، ولا ملحقَ لها يومئذ. وأعدتُ السنة على مضض، لأني كنتُ قويا ، (كما كنا نقول)، في الرياضة خاصة،

وفي سائر العلوم عامة، سوى العربية. وصنع الله لي حيثُ سقطت، وأحسن بي إذ ملأ قلبي مللا من الدروس المعادة، واتسع الوقتُ، فصرتُ حرا أذهب حيثُ يذهب إخوتي الكبار إلى الأزهر، حيث أسمع خطب الثوار، وأدخل «رواق السنارية» وغيره بلا حرج. وفي هذا الرواق سمعتُ أولَ ما سمعتُ مطارحة الشعر، وأنا لا أدري ما الشعر إلا قليلا!! وكتب الله لي الخير على يد أحد أبناء خالي، ممن كان يومئذ مشتغلا بالأدب والشعر، فأراد يوما أن يتخذني وسيلة إلى شيء يريده من عمته، التي هي أمي رحمها الله، فأبيتُ إلا أن يعطيني هذا الديوان الذي سمعتهم يقرأون شعره ويتناشدونه. وقد كانَ، فأعطاني ديوان المتنبي بشرح الشيخ اليازجي، وكان مشكولا مضبوطا جيد الورق. فلم أكد أظفر به حتى جعلته وردي، في ليلي وفي نهاري، حتى حفظته يومئذ. وكأن عينا دفينة في أعماق نفسي قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم، وطفقت أنغام الشعر العربي تتردد في جوانحي، وكأني لم أجهلها قط، وعادت «الكلمة» العربية إلى مكانها من نفسي...))[1].

فتأمل هذه الكلمات، وهذا المشهد الثاني المؤلف من أجزاء ربما بدت غير متآلفة، لكن القدر جمعها في نفس الفتى، فسقط في «الشهادة» لكي ينهض بالشهادة، وملَّ الدروس المعادة ليعود إلى فطرته وسابق عهده... ثم تأمل كيف يصر فتى على أن يقضي لشاب أكبر منه غرضا من أغراضه مقابل أن يعطيه ديوان شعر سمع الناس يتناشدون أشعاره... ثم اعجب له؛ كيف تعلق به وأقبل عليه في ليله ونهاره حتى حفظه كله.

ثم انطلق الفتى بعد ذلك ينهل من معين الأدب والشعر، وانغمس في حبه ذاك انغماسا عظيما، لم يشرك في حبه لهذا الأدب والشعر إلا «الإنجليزية» ثم«الرياضيات» التي كانت أخذت بلبه وعقله، فكان لها -كما قال- كُلُّ اهتمامه وعظم إقباله، ولم يكن

(١) أباطيل وأسمار، ص ٤٤٦ - ٤٤٧.

له هم سوى إتقانها والتزود منها ما استطاع، وفوق ما يستطيع[١]، من غير أن تصرفه عن الشعر والأدب... ولكنه حين اضطر ليختار بين الثلاثة واحدا يصافيه ويرافقه في الجامعة ومن بعدها في حياته، آثر الأدب والشعر والعربية على كل شيء، بل.. لقد حمل عدته من القسم العلمي الذي كان سيفتح له أبوابا أخرى من العلم والعمل إلى القسم الأدبي الذي دخله بعد محاولات، وبعد جهد ويد من الدكتور طه حسين الذي كان «هو الجامعة، وكانت الجامعة طه حسين» كما قال أبو فهر من بعدُ. ولقد قال عن هذا التحول الثاني الغريب في عرف الجامعة ((لقد انفتحت لي الأبواب المغلقة على إحساسي القديم بخطر «الكلمة»، فإذا هي التي تفتح بصيرتي، فترى وتبصر ما لا يدركه البصر وما لا يقع عليه الحس. وعلمني كتاب «سيبويه» يومئذ أن «اللغة» هي الوجه الآخر للرياضيات العليا، ومن يومئذ صارت «الكلمة» عندي هي الحياة نفسها، هي نفسي، هي عقلي، هي فكري، هي سر وجودي ووجود ما حولي))[٢]. فهو هنا لم يهجر الرياضيات، بل انتقل إلى وجه آخر من وجوهها، وقد صدق وأحسنَ البيان ما شاءَ. وبهذا الانتقال وضع الفتى أول خطوة من خطواته في طريق التذوق، وصارت الحياة في نفسه تعني الكلمة، فبقدر استيعابنا للكلمة يكون استيعابنا للحياة، وبقدر استمتاعنا بالكلمة يكون استمتاعنا بالحياة، وهو لا يعني هنا بالكلمة الشعر والأدب فحسب، أو ((مجرد الألفاظ ولا مجرد ما يقال أو يكتب. [...] وإنما أعني بالكلمة، كل ما حرص الإنسان على تجويده وإحسانه، وأعطاه حقه من الصدق والإشراق، في أي باب كان من أبواب الإبانة. وسواء عندي بعدَ ذلك أن تكون «الكلمة» بيانا عن شيء أرضاه أو أكرهه، وأوافق عليه أو أخالفه،

(١) كان لهذا الحب الشديد للرياضيات، أثر كبير في نقد الشيخ وتذوقه فيما بعدُ... فإنه كان فيه منطقيا/ يتعامل مع النقد تعاملا رياضيا، ترى ذلك حين يسوق لك الأدلة في بناء فكرة، أو تفنيد رأي أو كشف أمر غامض. وقد أشار إلى هذا بشكل ضمني في نص سيرد من بعدُ.

(٢) أباطيل وأسمار، ص ٤٤٨.

وأعده حسنا يقال، أو قبيحا يعاف))[١]. وهذا الإحساس النافذ بالكلمة وامتدادها هو الذي سيهديه إلى الحق في قضية الشعر الجاهلي وإعجاز القرآن بعد تلك الأزمة التي زلزلته في الجامعة[٢].

٣- أثر الشيخ المرصفي ومصطفى صادق الرافعي:

كان طبيعيا أن يلتفت الشيخ حواليه وهو في ريعان الشباب/ يبحث عن قائد وقدوة له في هذا الباب الذي وجه إليه نفسه، وألقى عليه شراشره، فملك عليه عقله وقلبه ونفسه. فإن المرء محتاج دائما أن يكون له شيخٌ يقوده ويعلمه ويوجهه، فيراه خير معلم له، ومثلٌ أعلى يطمح في بلوغ مرتبته، ويراه أحقَّ الناس بوصف «الأديب»... وقد وجدَ الرجلين معا، فكان له معهما حديث وأشواق، ومحبة ترعرعت على اتحاد في الهموم واتفاق، فتعلق بهما أيما تعلق، وأسدلا عليه من الحب والمودة والصفاء والإخلاص ما جعله يركن إليهما على ما كان بينه وبينهما من فارق كبير في السن. فأما الشيخ المعلم فكان العلامة اللغوي الأديب سيد علي المرصفي (... - ١٣٥٠ هـ/ ١٩٣١ م) صاحب كتاب «رغبة الآمل من كتاب الكامل» و«أسرار الحماسة»، ومصحح كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي»، وأما القدوة والأسوة في الأدب فكان الأديب الفذ مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ/ ١٨٨٠ - ١٩٣٧ م) وهو أشهر من «نار على علم»!!

فأما الشيخ المرصفي، فقد وصف أبو فهر لقاءه به وتتلمذه له وعلاقته به، بعد عشرين عاما من ذلك اللقاء الأول، فقال: ((وكان الذي سعى بي إليه حبٌّ قد ملأ قلبي له،

(١) أباطيل وأسمار، ص ٤٥٠.

(٢) نعني قضية الشك في الشعر الجاهلي التي تولى كبرها الدكتور طه حسين -غفر الله له- وسنتوقف عندها في هذا الباب.

وإجلال قد أخذ عليَّ العهد أن أفي لهذا الشيخ ما حييت وفاء الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداء؛ وكنت يومئذ قد حضرتُ بعض دروسه في مسجد البرقوقي، وقرأت عليه شيئا من كتاب أبي العباس المبرد، وكان يعُدُّني كبعض ولده لسابق معرفته بأبي رحمهما الله))[١].

وقد قرأ عليه الشيخ كتابيه «رغبة الآمل» (وهو في ثمانية أجزاء) و«أسرار الحماسة» (وهو شرح المرصفي على حماسة أبي تمام) وكان أثر الشيخ على محمود الشاب في زمن القراءة عليه قويا شديد الوقع، فقد أثار اهتمامه وصرف قلبه إلى الشعر الجاهلي وبعض الشعر الأموي، حتى أخذه ما يأخذ الشباب في ريعان طلب المعرفة كما قال[٢]، وإنما أثر فيه ذلك الأثر العميق بأمرين؛ أولهما: أنه أوقفه على عظمة الشعر الجاهلي ودرره وغاص به في ثناياه حتى شغله عن الشعر العباسي وغيره، وثانيهما: أن الشيخ كان رجلا يتقن «لغة الصوت» كما يقول أبو فهر، حتى إن إلقاءه للشعر لَيُخْرِجُ من فمه معانيه ولو كانت من الغريب، فتتمثل للمتلقي واضحة المعالم تكاد تبعث الروح في أشخاصها والحركة في أمطارها ورعودها وبروقها. فكانَ له أثر عظيم في نفس أبي فهر وهو يحاول حينئذ أن يتذوق من غير أن يتخذ منهجا مطروقا أو طريقا معروفا... فكان للشعر وقع، حين يسمعه من فم شيخه، مختلف تماما عن كل وقع لشعر مهما بلغ من الجودة، فقد ((كان الشيخ حسن التقسيم للشعر حين يقرأه، فيقف حيث ينبغي الوقوف، ويمضي حيث تتصل المعاني، فإذا سمعتَ الشعر وهو يقرأه فهمته على ما فيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج بعده إلى شرح أو توقيف، وكان في صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار، وفي نبراته حين ينشد الشعر

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها: الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٢، ٢٠٠٣. (بعض الذكرى) الجزء ١، ص ٣١٤.

(٢) انظر حديثه عن هذا في مقدمة «المتنبي»(وهي غير الرسالة)، دار المدني، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.. ص ٨-٩، .

معنى الفهم للذي يتلوه عليك، فلا تكاد تخطئ المعاني التي ينطوي عليها، لأنها عندئذ ممثلة لك في صوته))[١].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الذي ذكر هنا، بل تعداه إلى أمر أكبر منه، يرى فيه أبو فهر أن المرصفي أقدَرُ على بيان المعنى حين ينشد منه حين يشرح بعد فراغه من الإنشاد، فيأتي في موضع آخر، ملتفتا بعد زمن طويل -بعد أن استوى المنهج على صورته التي عُرِفَ بها- يذكر أثرَ الشيخ عليه في بداية طريقه، ويشير إلى أن ما كان يفعله المرصفي في إنشاده إنما هو الإنشاد الحق الذي يقتضيه الشعر لتنبعث فيه الحياة من جديد بين يدي من يتذوقه، معترفا بأن الشيخ هو الذي هداه -بعد الله- وسدد خطاه على أول الطريق... يقول: ((كانت للشيخ رحمه الله وأثابه عند قراءة الشعر وقفات، يقف على الكلمة، أو على البيت، أو على الأبيات، يعيدها ويرددها، ويشير بيديه وتبرق عيناه، وتضيء معارف وجهه، ويهتز يمنة ويسرة، ويرفع من قامته مادّاً ذراعيه، ملوحا بهما يَهُمُّ أن يطير، وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما، تراه كأنه يجد للكلمات في فمه من اللذة والنشوة والحلاوة [ما][٢] يفوق كل تصور. كنت أنصت وأصغي وأنظر إليه لا يفارقه نظري، ويأخذني عند ذلك ما يأخذني وأطيل النظر إليه كالمبهوت، لا تكاد عيني تطرف وصوته يتحدر في أقصى أعماق نفسي كأنه وابل منهمر تستطير في نواحيه شقائق برق يومض إيماضا سريعا خفيفا ثاقبا. أيامٌ لم يبق منها إلا هذه الذكرى الخافتة! فإذا كف عن الإنشاد والترنم أقبل يشرح ويبين. ولكن شرحه وتبيينه لهذا الذي حركه كل هذا التحريك، كان دونَ ما أحسه وأفهمه ويتغلغل في أقاصي نفسي من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردد، كان دون ذلك بكثير، وكنت أحس أحيانا بالحيرة والحسرة

(١) جمهرة المقالات، (بعض الذكرى) الجزء ١، ص ٣١٦.

(٢) وردت الجملة من غير «ما»، وأظنها سقطت سهوا.. فأضفتها لأن السياق يحتاجها ليستقيم الكلام.

تترقرق في ألفاظه وهو يشرح ويبين، كأنه كان هو أيضا يحس بأنه لم يبلغ مبلغا يرضاه في الإبانة عن أسرار هذه الكلمات والأبيات. هكذا كان الشيخ رحمه الله، أي علاَّمة ذواقة كان!))[١]. وهذه صورة واضحة وضوح الشمس، ترى فيها هذه المعاني تتكلم، وهذه الصور تتحرك، وترى فيها امتداد ذلك الأثر العظيم في نفس أبي فهر، أثر لن يبلغه إلا من عاشه وشهده، لأن الذي أثر في شيخنا ما أحدث وأثر في نفسه ((لا يبلغ السماع بالأذن منه شيئا، لأنه وليد المشاهدة والعيان، لا وليد الألفاظ والكلمات!)) كما يقول واصفا لأثر الشيخ فيه وأثره في طه حسين. فإذا كنا نحن نكاد نلمس هذه الصورة، ونكاد نتمثلها تمثلا أقرب للوصف، فكيف سيكون الأمر حين تكون معاينة مباشرة؟ لا شك أنه كان أثرا... أي أثر!!

وأما أثر الرافعي فليس خفيا على من عرف الرجلين، ومن قرأ لهما لم يخطئ مكان هذا الأثر البالغ في نفس الشيخ وهو يراسل مثاله الأعلى في الأدب وأستاذه في باب الإبداع، بل حين يطلب منه أن يدفع كلمة «كافرة»[٢] ببيانه، ويحمّله المسؤولية إن هو لم يقم بحق الأمة عليه في رد هذا التجني وهذا الجهل الذي قصد الناطق به كلامَ الله سبحانه، تاركا الكتابة لكي يكتب الرافعي، وقد قال له بعد أن عرض عليه النازلة ((هممت بالكتابة فاعترضني ذكرك، فألقيت القلم؛ لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك))[٣]، مخاطبا إياه خطاب المطالب بحقه/ في حمايته وحماية الناس من جهل الطاعنين في الدين واللغة والقرآن. وفي هذه

(١) جمهرة المقالات، (المتنبي ليتني ما عرفته... ٣)، الجزء ٢، ١١٧٩.

(٢) أورد الرافعي في صدر مقالته «كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة» المنشورة في الجزء الثالث من «وحي القلم» هذه الرسالة التي أرسلها إليه محمود محمد شاكر كما يتضح من التوقيع، وقد أكد ذلك الأستاذ سعيد العريان رحمه الله في «حياة الرافعي»- سنة ١٩٣٣ وعمر الشيخ يومئذ أربعة وعشرون عاما، وفيها خلاصة لما بين الشاب الفتي والرافعي يومئذ من مودة اتصلت أسبابها، وامتدت على طول الأيام!

(٣) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ضبطه وصححه وعلق حواشيه محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة – المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م، (كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة) الجزء ٣، ص ٤٦٣.

الرسالة وجواب الرافعي عليها – لمن تأمل – بيان شاف كاف عن بيان هذا الأثر العظيم، ثم بيان هذه العلاقة التي ربطت بين كاتب كان يومئذ في قمة مجده الأدبي وشاب في الرابعة والعشرين[١] من عمره، بدأ يتلمس طريقه إلى قلوب القراء وعقولهم.

وحسبك أن الرافعي كان على يقين أن خليفته في الأدب لن يكون إلا هذا الفتى المتوقد الذهن الذي مات الرافعي ولم يبلغ بعدُ الثلاثين من عمره، فقد ذكر محمود محمد الطناحي أن الوراق الشهير حسام الدين القدسي حدثه قائلا: «زارني الأستاذ الرافعي في مكتبتي يوما، فسألته: ترى من يخلفك في الكتابة؟ يقول القدسي: فلم يقل لي: أحمد حسن الزيات ولا صادق عنبر، وإنما قال: محمود محمد شاكر»[٢].

ثم حسبك أن يصدر كتاب «المتنبي» في طبعته الثانية، فلا يحفل أبو فهر بإثبات كلمة من كلمات الثناء على الكتاب –وقد انهالت عليه من كل صوب حينها– إلا كلمة الرافعي، رغم ما فيها من توقف عن قبول كل ما قاله محمود في الكتاب

---

(١) ذهب كثير من الدارسين إلى أن عمر أبي فهر حين أرسل هذه الرسالة للرافعي كان ١٤ سنة، وجعلوا من ذلك دليلا على علو الهمة منذ صغره، ودليلا على العلاقة بينه وبين الرافعي منذ طفولته، ولا يشك أحد في علو هذه الهمة وعلاقته المبكرة بالرافعي، ونحن بصدد الحديث عنهما، ولكن هذه القصة لا تصح، لأن حديث محمد سعيد العريان عن قصة هذه المقالة ضمن كتابه «حياة الرافعي» كان مع أحداث عام ١٣٥٣هـ الموافق لسنة ١٩٣٣م، وقد أرخ أحد كُتَّاب مجلة الرسالة –وقَّع باسم «أستاذ جليل»– للحدث في مقالته «قصة الكلمة المترجمة» –المنشورة في مجلة «الرسالة»، الجزء ٢٥٩، السنة السادسة، ١٩٣٨– فقال –قاطعا الشك باليقين– : ((كتب صاحب (العثرات في اللغة والأدب) في الرابعة والأربعين من (عثراته) في جريدة (كوكب الشرق الغراء) في (٧رجب ١٣٥٢) كلمة عنوانها (موازنة) قال فيها: «قالت العرب قديما في معنى القصاص وأنه جُنة من العدوان «القتل أنفى للقتل»، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب فقال (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب)...)) وتاريخ ٠٧ رجب ١٣٥٢ يوافق ٢٦ أكتوبر ١٩٣٣. وهذا دليل واضح قاطع على أن تلك الرسالة كانت سنة ١٩٣٣، وكُتبت سهوا في الطبعة الأولى من «وحي القلم»: ١٩٢٣، وانطلق الدارسون من بعدُ من التاريخ المثبت في جميع طبعات «وحي القلم» –من غير تصحيح– لإثبات عمر أبي فهر حين أرسل الرسالة، ثم لإثبات علو همته منذ الطفولة وعلاقته بالرافعي.

(٢) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، ط١، ١٤٠٥هـ ١٩٨٤م، ص ١٠٦.. وانظر القصة مع تفاصيل أخرى في الصفحة ٦٨ من نفس الكتاب.

يومئذ، إلا أن المنهج كان فيصلا في أن يكتب الرافعي كلمة كان لها أثر عظيم في نفس الشيخ.

وليس من عملنا أن نستقصي ونفصل، فإن شئت تفصيلا؛ ففي كل ما كتبه محمود محمد شاكر عن الرافعي صورة من هذا الأثر لا تخطئها العين حين تمر بها، واسمع إليه يناجيه بعد موته ويبكيه، فيقول:

((شدَّ ما اختلفتْ عليَّ أحداثُ الحياةِ من بعدِكَ أيها الحبيب! كنتُ أشكو إليكَ ما أُلاقي من ظمأ الروح الهائمة، وهي تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهي ولا تستطيع أن ترِدَ، كنتُ أبثُّك أحزاني وهي جالسةٌ توقِد النارَ على نفسي، وتؤرِّثها بأفكاري القلقة التي لا تهدأ ولا تنقطع، كنتُ أشكو إليك آلامَ الشَّوْكِ الذي تنْبِتُهُ في قلبي الشُّكوكُ العاملةُ الناصبةُ، التي جعلتْ همَّها تعذيبي بالحيرةِ والخوفِ والحرمان، والحقيقةِ المؤلمة أيضًا، كنتُ أجدُكَ حين ينبغي أن أَجدَك، لأقول لك ما يحبُ عليَّ أن أقول[...]

أين أنت أيها الحبيب؟! كنتَ أخي وصديقي، ومن أستودعه سر قلبي المعذب في تنُّور الحياة الموحشة، التي يضطرم جوها بالصمت المتوهج، والوحدة المستعرة، كنت أخي وصديقي، وأنا أبيد كما تبيد الأيام والليالي في كهوف الحياة الدنيا، كنت أخي وصديقي، وعواطفي تزأر وتجأر في باطني كأنها وحش جريح، متألم ثائر، لا يرى مَن جَرحه لينتقم. [...]

انظر إليّ - أيها الحبيب - من وراء هذا الأسوار المنيعة التي تفصل بين الحياة والموت، الأسوار التي تمشي إليها الحياةُ كلها ساعةً بعد ساعة دائبةً ماضية لا تقف، فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقَّعُ، انظر إليَّ - أيها الحبيب - وتكلَّم

بكلامٍ من شعاع مضيء حيٍّ يُفهمُني حقيقتي الحية، ويضيء لعيني هذه الظلمات التي تعترك بين يدي في مدِّ عيني، انظر إليَّ - أيها الحبيب - واسكُبْ في قلبي ورُوعي حقيقة الإيمان الحيِّ الذي لا يموت، انظرْ إليَّ واصحبْني، فأنا الذي لا يصاحبُ الأحياء من الناس؛ لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة، كما يلد بعضهم بعضًا في مَشيمَة من الكره والعنتِ وآلام المخاض، وأمشَاجٍ من الدم يشْخَب من حولها، ويتضرَّجُ ويقيحُ بعضُه في بعض))[1].

ثم اسمع إليه في مقدمته لكتاب «حياة الرافعي» للأستاذ محمد سعيد العريان، يتحدث عن معرفته للرافعي وترقيه في هذه المعرفة، قائلا:

((عرفت الرافعي معرفة الرأي أوّل ما عرفته، ثمّ عرفته معرفة الصّحبة فيما بعد، وعرضتُ هذا على ذاك فيما بيني وبين نفسي فلم أجد إلاّ خيرا مما كنت أرى، وتبدّت لي إنسانية هذا الرجل كأنّها نغمة تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر، وظفرتُ بحبيب يحّبني وأحبّه، لأنّ القلب هو الّذي كان يعمل بيني وبينه، وكان في أدبه مسٌّ هذا القلب؛ فمن هنا كنت أتلقّى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثل منّي بالأدب وأقْوَم على العلم وأبصر بمواضع الرّأي))[2].

وقد تأملت في هذه العلاقة بين الرجلين وأثر الرافعي في أبي فهر، فبدا لي كأن الفرق بين الرافعي وشاكر هو أن الأول أديب القلوب.. والثاني أديب العقول.. والقلب يسحره البيان ويفتك به فيتعلق به سريعا.. أما العقل فالطريق إليه عسير متعب -وكذلك أمر المنهج- ولئن استطاع الناس أن يقتنعوا بأفكاره ويتشبثوا بها.. فالسير في طريقه التي

(١) جمهرة المقالات، الجزء الأول، (نجوى الرافعي)، ص ١٦٧- ١٧٣.

(٢) حياة الرافعي، محمد سعيد العريان، مكتبة الأصالة والتراث - مؤسسة الريان، ط١، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م، ص ٢٤ - ٢٥.

رسمها وبناء البيان على أصول الطريق صعب لا يكاد يتيسر إلا لقلة قليلة على تفاوت بين السائرين..

ومع ذلك فقد كان الرجلان معا مزيجا من أدب القلب والعقل.. ولكن غلب على الرافعي أدب القلب وغلب على شاكر أدب العقل.. وكان الأول يناجي العقول بحديث القلب وأدبه.. والثاني يستخرج أسرار القلوب بأدب العقل.. وهذا شيء عجيب!!

والفرق بينهما أن أدب الرافعي بإمكان كل قلب سليم صافٍ أن يتشربه.. وليس بإمكان كل عقل أن يستوعب منهج أبي فهر إلا أن يكابد ويبذل أكثر وقته ليقترب منه..

ولذلك يخطئ من يظن أن مجرد القراءة لأبي فهر يضعك على الطريق.. كلا.. كتب أبي فهر تريك الطريق.. وتدلك على آفاته ومزالقه لتحذر وتضع لك صُوى ترشدك.. وهذه الأشياء كلها يستطيع أن يراها كل عقل صحيح النسب.. ولكن لا يقدر على السير في طريق المنهج متحملا أهواله إلا صفوة الصفوة..

وقد كان محمود أعظم ثمار الرافعي وأنضجها.. فإنه أتم السير في دربه مجاهدا ولكن لم يكن نسخة منه.. وهكذا فليكن التلاميذ.. إذ ليس السير على خطى شيخك أن تكتب بأسلوبه وتعبر بألفاظه وتستدل بأدلته وطريقته.. إنما الأمر أكبر من ذلك.. وهو أن تصنع أسلوبك المنفرد وتسير في الطريق قادرا على السير فيه وحدك.. وتبذل الجهد لتحقق ما لم يستطع شيخك تحقيقه.. وهذا وحده ما يجعلك سائرا على خطاه..

***

٢- صورة الحياة الأدبية

كانت الساحة الأدبية والفكرية والسياسية -حين فتح محمود محمد شاكر عينيه على العالم الخارجي- تغلي غليانا لا يهدأ، وتتحرك فيها كل التيارات المختلفة/ تتصارع ويكيد بعضها لبعض، وتسعى كل فئة لتقنع الناس أنها الأسلم منهجا والأقرب للحق، فكان تلك الأيام العصيبة -مثل أيامنا هذه- تترك المرء حيرانَ لا يدري ما يفعل ولا مع من يفعل... وكان ذلك كله نتيجة لبسط الاستعمار سيطرته على كل ميادين الحياة، إذ فرض مناهجه في التعليم، وبسط سلطانه على الصحافة، وأحكم قبضته على السياسة، ونشر مذاهبه الفكرية في ميدان الثقافة والأدب، فكان هذا الصراع الدائم المستعر نتيجة حتمية يخطط لها كل مستعمر، يتصارع فيها أذنابه مع من يرفضونه ويجاهدون في سبيل تحررهم من قيده.

فقد استولى «دنلوب» على التعليم المصري (في ١٧ مارس ١٨٩٧)، ففرض نظاما تعليميا ((أراد به أن يُغلِّب اللغة الإنجليزية في التعليم، ويضعف تدريس العربية ما استطاع، ويجعلها مبغضة إلى الطلبة محتقرة بقدر الإمكان، (ومع الأسف هذا هو النظام السائد إلى اليوم في مدارسنا[١]، مع أنه نظام دنلوب، ولا نظام لدنلوب سواه). ففرض «دنلوب» تعليم العلوم كلها بالإنجليزية، واختصر دراسة العربية وما يتصل بها اختصارا

(١) وما يزال المعنى الذي حمله هذا النظام سائدا في كل بلاد العرب، ولكل بلد «دنلوبه»، ولكن هذه الأنظمة كلها على اختلاف أسمائها وظروف فرضها على التعليم لها هدف واحد، هو تغليب لغة المستعمر وثقافته على لغة البلد وثقافته، مما يعني زعزعة ثوابت المتعلمين، وتشكيكهم في تاريخهم وحضارتهم، وتزيين حضارة الغرب حتى يراها الناظر الحضارةَ المخلصة للبشرية. وقد تم للمستعمر ما أراد، فصار النظام التعليمي يهدم في كيان الأمة بقدر ما يبني على أنقاض هذا الكيان تعلقا بالغرب يجعل المرء لا يرى أنه يستطيع أن يتقدم أو يرتقي مجتمع إلا إذا سار في الطريق التي سنها الغربيون.

سوف يؤدي بعد قليل، إلى وجوب استمرار ضعف تعليم العربية جيلا بعد جيل))[١].

بل، لقد تجاوز الأمر ذلك، فإن حال العربية اليوم -ليس في مصر وحدها، بل في كل بلاد العرب- في ضعف مستمر، ولا تزال تعاني من احتقار أبنائها لها وانصرافهم إلى لغات الغالبين، يظنون أن التقدم في أن تلبس لباس عدوك وتتحدث لغته، وأشد حالات التحقير ما نراه من إسناد مهمة التدريس إلى طلبة مفرغين من ثقافتهم تفريغا كاملا، لا يحسنون ينطقون العربيةَ سليمة، ولا يعرفون من آدابها شيئا ذا بال، ولا يفهمون من أشعارها قليلا ولا كثيرا، فضلا عن أن يحفظوه، ثم لا يهمهم من عملهم ذلك إلا ما يحصلون عليه من مقابل آخر الشهر. ومثل هذا النظام لم يكن هدفه أبدا ((تخريج موظفين، كما كان يحلو للعامة وأشباه العامة أن يقولوا)) بل إن الهدف الأكبر الذي سعى إليه «دنلوب» ونُسَخُهُ في كل بلد عربي مسلم ((أن يضلل أمة عن طريقها الذي ينبغي أن تسلكه في تعليم أبنائها، وأن يُنْشِئ جيلا مُدَمَّرَ الظاهرِ والبَاطنِ، لا يستطيع أن يدرك حقيقة التلف الذي وقع في بنائه وتكوينه، ثم يكون هذا الجيل نفسه هو الذي أُعِدَّ لكي يتولى قيادة الأمة والتفكير لها والعمل على إصلاحها والنهوض بها!!))[٢] وهذا كلام جامع مستغن بنفسه عن كل تعليق، فتأمله !

وقد كانت بداية هذا الطريق عبر إرسال «البعثات الطلابية» إلى أوربا، وهم شباب، أخِذوا من ديارهم إلى بلاد الغرب - بدعوى طلب العلم - ليروا الحضارة هناك ويتأثروا بها إلى الحد الذي يسمح لهم بأن يقطعوا بأن كل شيء في أمتهم يحتاج تجديدا كيما يكون لها ما لبقية الأمم. حتى إذا تمكن منهم الانبهار أرسلوا إلى بلدانهم (قلت أرسلوا، وليس أعيدوا، لأن عقولهم قد تحولت حتى صار الواحد منهم يرى نفسه من جلدة غير جلدته، فهم حين

(١) أباطيل وأسمار، ص ١٣٥.

(٢) أباطيل وأسمار، ص ٤٤٨.

عودتهم كانوا مثل الرسل المبشرين، كذا ظنوا) بغير العقول التي جاءوا بها؛ عقول جاءت تتعلم الصناعة والتجارة والفنون العسكرية، فعادت بحب العدو، فلم يكن هناك داع للعلم إذا استطاع أن يقنع أهله بأن الحضارة حضارة الآخر، وأنه مهما يعمل فلن يزيد شيئا على التقرب من هذه الأمة العظيمة. فانقلب الأمر من مجاراتها إلى البحث عن مجاورتها والعيش في ظلها. فلما بدا للغزاة أن تلك البعثات وحدها لا تكفي، جاء هذا النظام التعليمي بغرض تنشئة ((أجيال متعاقبة من «تلاميذ المدارس» في البلاد، يرتبطون ارتباطا وثيقا بهذا التحول، عن طريق تفريغهم تفريغا كاملا من ماضيهم كله، مع هتك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعيا وثقافيا ولغويا، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون ولكنها فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم، ولغاتهم هم، أعني الغزاة))[١]

وقضية فصل الأدب وعلوم العربية عن أصولها التي نبتت فيها، والسعي لإضعاف العربية في قلوب أبنائها، تقتضي أن تملأ الفراغ الذي سيتركه هذا الفصل والإضعاف؛ ((لأن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطا بالعربية والإسلام، يحتاج إلى ملء بماض آخر يغطي عليه، فجاءوا بماض بائد معرق في القدم والغموض، ليزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفق الحي الذي يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل))[٢]. فإن كانت اللغة الإنجليزية قد حلت محل العربية وزحزحتها؛ فإن باب الدراسة الأدبية أيضا قد حطت بها مذاهب التحليل الغربي رحالها، وأنشبت في جسد الأدب العربي مخالب هذه المذاهب التي تدرس الأدب بطريقة لا تخدمه بقدر ما تخدم نفسها وأهواء واضعيها وأشياعهم.

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٢، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦ م، ص ١٥٣.

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، الصفحة نفسها.

((وفي ظل هذا التفريغ المتواصل [...]، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشا غير واضح المعالم، ولكنه يقوم على أصل واحد في جوهره، هو ملء الفراغ بما يناسب آدابا وفنونا غازية كانت قد ملأت بعض هذا الفراغ، فهي تحدث في النفوس تطلعا إلى زاد جديد منها))[١].

وقد امتد هذا الانتعاش الذي تغشته ضبابية تشوش الرؤية إلى الإبداع، فكثر «المبدعون» وانتشر «الكتاب»، ولكن حين تنعم النظر فيه لا تجده إلا سلخا للإبداع الغربي وسطوا على أفكاره وتحويرا للأماكن والأسماء، فكان كل ما يدور في ذلك الفلك مما أثيرت حوله هالة من التقدير والإعجاب في «الرواية» و«المسرحية» و«القصة» و«الشعر» (أيضا) -في غالب الأمر- لا يتجاوز أن يكون نقلا لثقافة هذا الغازي إلى العربية نقلا يختلف فيه الناقلون بحسب قدراتهم على التمويه، وبقدر إتقانهم للسطو والسلخ والتقليد[٢].

وأما السياسة، فيكفيك ذكرُ الاستعمار عن الخوض في تفاصيلها، ثم يكفيك ما ذكرناه من قبل من كون طلبة هذه المدارس المفرَّغة هم الذين يراد لهم أن يكونوا القادة غدا... فهذا أمر خطير يحمل بين طياته كل أسباب نكسة الأمة إلى يومنا هذا، ويحمل بين طياته أيضا أسباب نهضتها إن ابتغت إلى ذلك سبيلا.

اجتمعت هذه السهام المسمومة كلها في زمن واحد، وتكالبت أهواء الأمم على أدب العربية وسياستها ودينها، فأحدثت في نفس محمود من يومئذ صدعا، وزلزلت قلبه وعقله زلزالا شديدا، لم يستفق من ميده وآثاره إلا بعد جهد جهيد، حين التمس طريقا

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ١٥٤.

(٢) انظر حديث الشيخ عن هذا بشيء من التفصيل في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ص ١٥٤. فقد ذكر هناك المسرح والقصة، وهما نموذجان فقط... ولك أن تنطلق من هذا الأصل، فتقيس عليه كثيرا من الإبداع... كان يومئذ ظاهرا أنه نقل للثقافة، فصار اليوم هو الثقافة، حتى إنهم ليقولون «الرواية ديوان العرب»!!

مختلفة عن تلك الطريق المعبدة للسائرين يومئذ، يقول متحدثا عن حاله تلك: ((كنتُ منغمسا في غمار حياة أدبية بدأت أحس إحساسا مبهما متصاعدا أنها حياة فاسدة من كل وجه. فلم أجد لنفسي خلاصا إلا أن أرفض متخوفا حذِرا، شيئا فشيئا، أكثر المناهج الأدبية والسياسية والاجتماعية والدينية التي كانت يومئذ تطغى كالسيل الجارف، يهدم السدود، ويقوض كل قائم في نفسي وفي فطرتي))[1].

هذه الصورة القاتمة للحياة الأدبية في نفس الشيخ لم تفارقه يوما، ولم يستطع التخلص من آثارها التي جعلته يرفض كل ما يأتي من طريقها رفضا قاطعا، لا يحابي فيه أحدا ولا يخشى غضب من يغضب ولا سخط الساخطين. وكان لهذا القرار الحاسم آثاره الكبيرة التي ألقت بظلالها على حياة الشيخ كلها، وعلى جهوده وآثاره. ذلك أن الأيدي التي تحرك الساحة الأدبية والثقافية والاجتماعية والسياسية من مراكزها جنَّدَتْ لعملها الإعلامَ ليكون صوتها الذي يصل إلى كل الناس، وما دامت تتحكم في الإعلام والصحافة والتعليم فإن استغلال هذه الوسائل لنشر أفكارها ومذاهبها يقرب الأهداف التي يسعى إليها القوم. فمن يسير في ركبهم ويحدو لمذهبهم، فإنهم يحيطون به هالة كبيرة من التعظيم والتبجيل، ويصنعون منه بطلا في فنه الذي يحسنه أو لا يحسنه، بطلا لا يخطئ ولا يزل أبدا، ويلفتون الأنظار إليه من كل وجه، ويقدمونه نموذجا للتقدم والإبداع والرقي الحضاري، ولو كان بطلا من ورق يحمل سيفا من خشب. وأما من يخالفهم فهو على النقيض تماما، يجاهدون قدر استطاعتهم أن يصرفوا الناس عنه، وأن يكشفوا عيوبه إن كانت ويصنعوها إن لم تكن، ثم يحيطونه بسياج من التخلف والرجعية تمنع الناس من الاقتراب منه أو الاستماع إليه. وقد كان على محمود أن يتحمل المشقة والعنت

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٠٦.

في هذه الطريق الثانية، وأن يتحمل السهام الكثيرة التي تستهدفه في كل وقت وحين، وأن يكون على استعداد دائم للمعارك التي تلدها هذه الحرب المستعرة الدائمة بينه وبين الحياة الأدبية الفاسدة، كما يصف..

هذا هو المشهد الأول من هذا الفساد الذي عمَّ وساد ميادين التعليم والثقافة والأدب واستشرى، وكان الشيخ يتوق إلى تحسين شيء من هذه الصورة في الجامعة بعد افتتاحها بمصر، فقد كان يرى فيها أحلامه وزوال آلامه، وينظر إليها نظرة مختلفة يأمل من خلالها أن تقوم بدورها المنوط بها في القيام بأمر العلم والأدب والثقافة خير قيام، وأن تعيد للعربية بريقها وسناها، وقد قال عن صورة الجامعة في نفسه أول الأمر ((دخلتُ الجامعة ومعي هذا المعنى يتسع ويتراحب يوما بعد يوم [...]. دخلتها ومعي فورة الشباب وأحلامه وتهاويله. دخلتها ومعي كل ما قرأته وسمعته من أدب أمتي وتاريخها وأخلاق علمائها وعظمة رجالها...))[1]. ومن أجل هذا الحلم الكبير الذي رجا به أن يعوضه شيئا مما أفقدته الحياة خارج الجامعة اختار قسم العربية وترك تخصصه العلمي، وجاهد ليكون له الحق في ولوج قسم العربية في الجامعة، وكان له ذلك بعد أن توسط له الدكتور طه حسين. ولكن هذا المعنى الذي تراحب واتسع/ استمر كذلك إلى أن بلغ مبلغا ارتد عنه البصر خاسئا وهو حسير، فإنه لم يكد يدخل الجامعة حتى وجد هناك فصولا أخرى من فساد الحياة الأدبية أشد تعقيدا وأوهن بيتا وأعظم خطرا في نفسه، إذ تأكد له بعد حين أن ذلك المعنى الذي أقامه للجامعة في عقله وقلبه لم يكن صحيحا أبدا.

وفي تلك السنة التي دخل فيها الجامعة كان الدكتور طه حسين يلقي محاضراته في الشعر الجاهلي، وهي التي نشرت من بعدُ في كتابه المعروف «في الشعر الجاهلي» الذي أثار

(١) جمهرة المقالات، الجزء ٢، ص ١١٠٤.

ضجة عظيمة لم تهدأ إلا بعد زمن طويل. وكانت خلاصة تلك المحاضرات ((أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الشعر الجاهلي الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شيء))[1] والطريق إلى «المسَلَّمة» (!!) التي سعى الدكتور لتقريرها في النفوس تمر عبر منهج الشك الذي افتتن به وتعلق به تعلقا غريبا، بحيث يراه ذروة الكمال الإنساني -مثلما يرى أن العلم علمُ الغرب المتحضر، وأن الشرق لن يتقدم إلا حين يسلك هذه الطريق التي سلكها الغرب في علومه وآدابه- ولكنه -مع ذلك- لم يطبق من هذا المنهج إلا جزءا من قاعدته، ولم يبال حين أسقط الشعر الجاهلي وشكك فيه جملة أن يقيم المنهج على حقه، وهنا الفارق بين منهجه في الشك وبين منهج الشك عند ديكارت، فالأخير شك منهجي ينطلق من الشك ليصل إلى الحقيقة، والأول شك فحسب يبدأ من الشك وينتهي إليه..

ليس هذا فقط؛ بل إن هذا الكلام الذي كان يردده الدكتور حينئذ لم يكن إلا «سطوا» بشعا على مقال كان قد نشره المستشرق «ميرجليوث» من قبل، وقرأه محمود محمد شاكر قبل ولوج الجامعة، فكان حديث الدكتور مجرد «حاشية على هذه المقالة» بعد أن حذف منها الحجج السخيفة التي لا يقبلها عقل يعرف ذرة من العربية ويفهم شيئا في الأدب، وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. لا، بل إن الدكتور لم يشر ولو إشارة واحدة إلى صاحب «المتن» الذي أنشأ عليه حاشيته «في الشعر الجاهلي»، وإنما كان في كل مرة يقول ((انتهى بي البحث)) وما في معناها...

(١) في الشعر الجاهلي، طه حسين، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس. ط ٤، ٢٠٠٤. ص ١٧.

هذه ثلاثة أشياء كان لها وقع ثقيل في نفس الشيخ يومئذ، وكان لها أثر بالغ من بعدُ، بل إنها تكاد تكون أكبر المؤثرات في رحلة البحث عن المنهج، وهي التي كانت وراء منهج التذوق بشكل مباشر، وإن تفاعلت معها بقية المؤثرات التي ذكرناها من قبل. ولكن هذه المشاهد الثلاثة الأخيرة في هذه المسيرة الأولى التي انطلق بعدها الشيخ في رحلته الطويلة البعيدة بحثا عن الحق هي ذروة الضغط، والشرارة الكبرى التي أحرقت بقية ما كان الشيخ يرجو من أمل في الاستقرار، فلم يبق إلا أن يلقي كل شيء دبر أذنه، ويستقبل رحلة بحث طويلة الأمد، متشعبة المسالك، محفوفة بالمهالك.. مما اقتضى منه أن يعتزل الناس ويتفرغ لهمه ومأساته حتى يجد لها في نفسه حلا، وحتى ينتصر على الفساد الطاغي الذي يريد أن يدمر في نفسه كل حصن -كما فعل بأبناء جيله- ويقتل فيه كل إحساس بالانتماء للأمة، وكل أمل في نهضتها وتحررها من قبضة هذا الغازي الفاجر.

أما «منهج الشك»، فلم يكن المشكل الأكبر فيه في ذاته، بل من طريقة حديث الدكتور عنه وطريقة استعماله، بعيدا عن مسألة النظر في حقيقة المنهج؛ وهل هو صالح للتطبيق على كل شيء أم لا؟ فالدكتور في حديثه عن المنهج لا يكف عن تعظيمه إلى درجة أقرب من التقديس، ولا يتوقف عند هذا، بل ينطلق منه ليقرر أن علم الغرب ومناهجهم هي العلم الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (...)، ويقرر في المقابل وبمفهوم المخالفة أن الذي لدى العرب والمسلمين ليس قائما على أساس من العلم الصحيح مثلما هو الحال في علوم الغرب ومناهجهم. ويسير على هذا حتى يرمي المفسرين والفقهاء والعلماء بالكذب ويتهم التاريخ كله، بل حتى عرض له أن يقول رأيا في بعض القصص القرآني... أما كيف استعمل المنهج، فقد ذكرنا شيئا من ذلك، وخلاصته أن الرجل لم يكن يطبق منهج الشك كما هو عند «ديكارت»، وإنما نسب عمله ورأيه في الشعر الجاهلي إلى منهج الشك لتكون له مصداقية، ويكون له قبول في نفوس الذين يظنون أن كل علم الغرب علمٌ صحيح لا يمكن تلقيه إلا بالقبول التام. وإلا

فبين عمله وبين المنهج بون شاسع، قد تولى الذين كتبوا في الرد على كتابه تفصيل القول فيه.

وأما الذي تولد عن هذا الشك، وهو «الشك في الشعر الجاهلي» فإنه كان ترديدا لكلام المستشرق «ميرجليوث» من غير إشارة ولا ذكر له كما فطن لذلك الشيخ، وكان هذا الحديث الطويل المعاد تقويضا لبنيان الشعر الجاهلي الذي استحكم في قرارة نفس محمود وعقله وقلبه، وكان قد أقبل عليه قبل ذلك بكل جوارحه حين كان يقرأ على الشيخ المرصفي بعضا منه، ثم استمر عليه من بعدُ. واستقر في نفس محمود أن المتحدث عن الشعر الجاهلي يجب أن يقرأ ((الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءة متذوقة مستوعبة، ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية، أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة، وأنه موضوع في الإسلام، من خلال روايات في الكتب هي ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير))[١]. ومن لم يمر بهذه المرحلة ثم ارتكب طريق الحكم على الشعر الجاهلي، فلا يمكن إلا أن يفسد من حيث ظن أنه يصلح، وإنما هو كصاحب الشنفرى:

وَكَفٍّ فَتىً/ لـم يَعْرِفِ السّـلْخَ قَبْلَهَا تجـورُ يَـدَاهُ فـي الإهَـابِ وتخـرُجُ

وهذه المسألة كما طرحها الدكتور في محاضراته، لم يكن لها شأن في نفس محمود في ذاتها، فإنه لم يتأثر بها حين قرأها أول مرة بعد أن نشرها «ميرجليوث»، واستبرد تلك المقالة قائلا ((ولأني عرفت حقيقة الاستشراق، لم ألق بالا إلى هذا الذي قرأتُ، وعندي الذي عندي من هذا الفرق الواضح[٢] بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي))[٣] ثم قال لأحمد تيمور

(١) المتنبي، ص ١٧.

(٢) كان الشيخ رحمه الله في هذه المرحلة قد قرأ ما تيسر له أن يصل إليه من الشعر الجاهلي، قراءة متذوقة مستوعبة، فوجد أن الشعر الجاهلي مختلف اختلافا واضحا عن الشعر الأموي والعباسي، ولكنه لم يستطع حينها أن يكشف موضع هذا الاختلاف أو يحدده. وستتحدث عن هذا ببعض التفصيل في الباب الثاني.

(٣) المتنبي، ص ١٢.

حين سأله عن رأيه: ((رأيت أعجميا باردا شديد البرودة، لا يستحي كعادته))[١]. فظاهر إذن أن المسألة تافهة في ذاتها، ولكنها حين تصير أفكارا تملأ بها عقول الطلبة الذي أفسدتهم نظام «دنلوب»، وحين تذاع ((حاشية طه حسين على متن مرجليوث)) في الجامعة ويأخذها الطلبة على أنها علم وحقائق أفضى إليها منهج سليمفإنها حينئذ تكون خطيرة على ثقافة الأمة وتاريخها وأدبها، ثم إن الشك في الشعر الجاهلي لم يكن شكا متوقفا عند ذلك الحد، بل هو مقدمة فقط للطعن في «إعجاز القرآن» ومنه إلى الطعن في الإسلام وتاريخه كله[٢]، فلذلك كان له وقع ثقيل على قلب محمود وعقله ونفسه. فإنه إذا تم تقويض هذا البناء القائم في النفس، الذي يحمل كل مقومات الانتماء والثقافة والسياسة لم يبق شيء يركن إليه هذا العربي المسلم، ولم يكن أمامه إلا أن يستسلم لهذا الغازي، ويسعى لينال من فضلاته ما يعيش به، لأنه -إذا تم ذلك- لَقِيطٌ لا أصل له يركن إليه في دين ولا ثقافة ولا سياسة ولا أدب.

وأما «السطو« فإنه هو الذي قَوَّضَ ما تبقى من أركان الجامعة في نفس الشيخ، وحطم في قلبه كل أمل في هذه الحياة الأدبية الفاسدة. هذا السطو الذي بدأ قبل أن تثور قضية «الشعر الجاهلي» يسير على استحياء، فلما تفجرت القضية، وظهر ظهورا سافرا أن الدكتور سطا على كلام المستشرق سطوا فاحشا، ((ابتلعت الجامعة وأساتذتها هذا «السطو«، ثم تستروا عليه، لا بل حاطوه بالرعاية وبالعصبية. فكان ذلك إقرارا بالصمت، لهذا المبدأ))[٣]. بل تفشى الأمر وانتشر، وصار ضربا من التجديد في دراسة الأدب وإنتاجه. يحميه «الإرهاب الثقافي» الذي كان يمارسه «الأساتذة الكبار» كما يسميه ويسميهم الشيخ، فاستشرى الأمر بشكل غريب حتى خرج منه فيما بعدُ

(١) المتنبي، الصفحة نفسها.

(٢) سنتحدث عن ذلك في الباب الآتي، فانظره هناك...

(٣) جمهرة المقالات، الجزء ٢، ص ١١١٥.

ضربٌ أكثر وقاحة وأبشع صورة وهو «السطو الحر»؛ تسرق فيه الكتب كما هي بعد أن يموت أصحابها، فتُنسب إلى هذا الأستاذ وذاك من غير أن يملك صاحب الكتاب أن يدافع عن نفسه وهو تحت الثرى[١]، ((وصار السطو على أعمال الناس أمرا مألوفا غير مستنكر، يمشي في الناس طليقا عليه طيلسان «البحث العلمي» و«عالمية الثقافة» و«الثقافة الإنسانية»، وإن لم يكن محصوله إلا ترديدا لقضايا غريبة، صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم في كل قضية، واختلط الحابل بالنابل، قل ذلك في الأدب والفلسفة والتاريخ والفن أو ما شئت، فإنه صادق صدقا لا يَتَخَلَّف. فالأديب منا مصور بقلم غيره، والفيلسوف منا مفكر بعقل سواه، والمؤرخ منا ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان منا نابض قلبه بنبض أجنبي عن تراث فنه))[٢]. وهذا صورة جامعة لهذا السطو، كتبها الشيخ بعد زمن طويل من مأساة السطو الأولى التي شهدها في الجامعة، وإنما أثبتناها لأنها تحمل بين طياتها كل معاني السطو الذي هز الشيخ من أيام الجامعة ثم استمر كذلك يزلزله مرة بعد مرة، ولا يتوقف مده، بل صار مما يأخذه الخلف عن السلف، ويربي عليه الأستاذ تلميذه، فإن أنكره أحد صار مرمى لسهامهم، وهدفا لتهديداتهم... وقد قص الشيخ من أمر السطو أشياء كثيرة، إذا شئتَ أن تعرف أصل السطو وأثره البالغ في نفسه فاقرأه في كل ما كتب عنه، فإنه لا يكاد يتحدث عن فساد الحياة الأدبية حتى تحس به يمزقه أمر هذا السطو وما جره على التعليم والثقافة والأدب من الاستخفاف والتبجح الكاذب والهوى القاتل، ومعه الثرثرة الفارغة التي صاحبته (السطو) في الإعلام والصحافة وكل ميادين الحياة.

---

(١) وقد زاد الأمر اليوم سوءا بعد أن صارت دور النشر من ثعالب الثقافة ينشرون كتبا محققة لأشخاص معروفين، تخطفهم الموت، فينسبون التحقيق لمجموعة من الأخصائيين -هكذا- وهو في الأصل مصورة عن مطبوعة منقرضة.

(٢) المتنبي، ص ١٢٣.

لقد قوضت هذه الأمور التي شاهدها بعينيه كل معنى قائم للجامعة في نفسه، وتركتها ركاما وخرابا لا مكان له فيه، ولذلك لم يبال بتركها بعد أن تأكد له أن لا معنى لبقائه فيها، ولم يستطع أحد أن يمنعه من تنفيذ قراره الذي اتخذه حين عزم على مفارقة الجامعة، بل مفارقة مصر كلها بحثا عن الحق في قضية «الشعر الجاهلي» وبحثا عن نفسه وفطرته وتاريخه وثقافته التي أراد التعليم والحياة الأدبية الفاسدة أن يسلبها منه، وأن يصنع منه -كما صنع من كثير من أبناء جيله ومن قبلهم ومن بعدهم- تابعا مخلصا لهذه الحضارة الغازية، مستسلما لها لا حول له ولا قوة، يرى بعيون أعدائه ويحب ويكره بقلوبهم، ويسمع بآذانهم، ويتكلم بألسنتهم. ولكن:

هَلْ صَحّ قَوْلٌ مِنَ الحاكِي فَنَقْبَلَهُ؟ أَمْ كُلُّ ذَاكَ أباطِيلٌ وَأَسمَارُ؟

أمّا العُقُولُ فَآلَتْ أنّهُ كَذِبٌ والعَقْلُ غَرْسٌ لَهُ بالصِّدْقِ إثْمَارُ

* * *

٤- رحلة البحث عن الحق

لم يستطع محمود محمد شاكر أن يتحمل أكثر مما تحمل وهو يستمع إلى هذا الحديث الذي ذكرنا عن الشعر الجاهلي مصبوغا بالمنهج الزائف يدفعه السطو العاري. وقد مرت عليه الأيام ثقيلة جدا، وهو يجد في نفسه أن له القدرة على نسف كل ما يقول الدكتور طه حسين يومئذ عن الشعر الجاهلي وعن المنهج، ولكن لا ينطلق لسانه بذلك أمامه هيبة له أول الأمر واحتراما له، فكان يبوح بما في نفسه لمن حوله من الطلبة ومعارفه من الأساتذة، ثم جهر بذلك وأفصح به للدكتور، وحاوره وجادله في القضية مرارا، فكان الدكتور يقبل عليه مرة وينقبض وجهه مرارا، ويتقبل ما يقول أحيانا وينتهره أحيانا أخرى. ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا، فلا يزال الكلام عن الشعر والمنهج هو هو، ولا يزال السطو كما هو، بل زاد تسلطا. ومع ذلك، لم يستطع أن يتجرأ فيصف له فعله بمقالة المستشرق، ولا أن يرمي في وجهه ما كان يقول في غيابه من أن حديثه كله «سطو« عريان على ما قاله «ميرجليوث»، مع أنه كان يعرف أن حديثه عن ذاك مع الآخرين سيصل إلى الدكتور لا محالة، لكن الدكتور لم يفاتحه في الأمر مرة ولا هو استطاع أن يرمي بها في وجهه. واستمر حديثه عن الأمر حتى تدخل بعض الأساتذة وناقشوه في الأمر، فكان يصارحهم بأمر السطو، فيغضون عن الأمر أبصارهم، وهم يعرفون تمام المعرفة أنه صحيح ثابت، ثم لا يزيد أحدهم على أن يبتسم في وجهه ثم يتركه. فانهار كيان الجامعة في نفسه، وصار أنقاضا، لم يستطع أحد أن يبني مكان تلك

الأنقاض صرحا يركن إليه لما يئس منها، فقرر أن يتركها ويمحوَ كل آثارها في نفسه: ((وبغتة تهاوى كل شيء وهلكت قدرتي على الصبر فانقطعت عن الدراسة واستحصدت عزيمتي على أن أهجر مصر كلها لا الجامعة وحدها، غير مبال بإتمام دراستي الجامعية، طالبا للعزلة، حتى أستبين لنفسي وجه الحق في «قضية الشعر الجاهلي»، بعد أن صارت عندي قضية متشعبة كل التشعب))[1].

كانت ردة فعل شديدة، لا شكَّ في ذلك، ولكن ليس يُدفع أحد إلى مثلها إلا إذا كان مخيرا «بين خصلتي الضبع»، فإن كان شيخنا يومئذ مخيرا بين أن يسكت ويطرق ويتلقى ما يتحدث به الأساتذة صوابا كان أو خطأ من غير أن يكون له حق في تصويب الخطأ، أو حق في إظهار ما يراه حقا، وهذا لا يتفق أبدا وطبيعة محمود الثائرة التي تشربت الانتصار للحق مهما كان الثمن، وتشربت الأنفة التي تمنعها من أن تخضع لسلطان أحد غير سلطان العلم والحق وبين أن يصرخ في وجوه أهل السطو ويقف ضدهم في كل خطأ، ويكاشفهم بما في نفسه، وهذا سيجر عليه عداوتهم لهم، وسيرفعون في وجهه سوط «الإرهاب الفكري» وسَيَتَّحِدُونَ ضده في كل ما يمكن أن يمس فيه سمعتهم وشهرتهم وسلطانهم، فتصير حياته في الجامعة جحيما لا يطاقفإنه اختار خيارا آخر أبعد مما يتصور أحد، وهو خيار سينجو به من الضبع أو «الغول» وخصلتيه، وإن كان خيارا صعبا لا يستطيعه كل أحد. ذلك أن اتخاذ قرار كهذا، يدل دلالة عميقة على مدى الزلزال الذي أحدثه «السطو»، وما جره خلفه، في نفس محمود محمد شاكر، حتى ألجأه إلى أن يفر بجلده ليعيش حرا بعيدا عن العبودية التي يجره إليها القوم في الجامعة وفي الحياة الأدبية (الفاسدة) عموما، ولو كان الخيار قاسيا جدا. لكن الشيخ قد خرج من معركته تلك

(١) جمهرة المقالات، الجزء ٢، (المتنبي ليتني ما عرفته ١) ص ١١٠٧.

منتصرا، وكان ما قرره حينئذ من الابتعاد خيرا له ولأمته. فإن تلك المحنة التي أخرجته من الجامعة، هي التي أدخلته إلى التاريخ من أوسع أبوابه.

أجمع شيخنا أمره على أن يفارق مصر كلها لا الجامعة فقط، وأن يسافر إلى الحجاز أرض أجداده، وموطن الشعر الجاهلي بحثا عن الحق، واعتصاما بهذه الأرض المباركة من سهام التغريب التي أرادت أن تمزقه وتقطع كل نسب يربط بينه وبين هذه الأرض/ بتاريخها ودينها وثقافتها وعلمها وأدبها. فكانت هجرته إلى الجزيرة العربية أشبه بالرد على هذه الطائفة التي ترى في الغرب وعلمه وأدبه وثقافته كلَّ ما يمكن أن يبلغه عقل البشر المتحضر، وترى -بالمقابل- في الشرق كل أسباب التخلف، وكانت أشبه بالرد على هؤلاء الذين يرمون بأنفسهم في أحضان الغرب الماكر المستعمِر فيكسوهم من أخلاقه وأفكاره المسمومة بعد أن يجردهم من أخلاقهم وثقافتهم، أو يزعزع ثقتهم في تاريخهم وأدبهم وعلمهم، ويحشو عقولهم بفضلاته بعد أن يجردهم مما يراه أوهاما كانوا يظنونها من قبل علما. فهو كالقائل لهم: إن كنتم راحلين إلى بلاد أعدائي وأعدائكم، فإني مهاجر إلى أرض أجدادي وأجدادكم، ألتمس الحقَّ هناك، وأدفع عن نفسي كيد هؤلاء الذين ضلوا وأضلوا وأفسدوا عقول أبناء أمتي بما أتيح لهم من سلطان وحقد دفين وورع كاذب وتمويه قاتل.

لم تنفع كل محاولات ثني الفتى عن عزمه، ولم يستطع أحد أن يكُفَّه عن طلبه وبلوغ غايته، ورحل إلى الجزيرة العربية غير مبال بما هو مقدم عليه من مفارقة بلاده وأهله، ومن هجر الدراسة الجامعية أيضا غير باك ولا آسف، وانطلق ومعه صاحبان يؤرقان ليله ويلهبان نهاره: ((بشاعة «السطو»، وبشاعة التستر عليه من عارف خبير، لا يكتفي بالتستر، بل يطالب بالتغاضي عنه، وبتوقير الساطي وتعظيمه بحق الأستاذية لا غير!!))[1].

(١) المتنبي، ص ١٩.

وبهذا المشهد الأخير من فصول هذه القصة المثيرة بكل تفاصيلها أسباب الحيرة، الباعثة في نفس شيخنا يومئذ روح البحث عن الحق الذي سيجعله يطمئن كان الإعلان عن مرحلة جديدة من البحث الدؤوب، والعمل الشاق الجاد، مضى فيها وحيدا منفردا فكانت ((رحلة طويلة جدا، وبعيدة جدا، وشاقة جدا، ومثيرة جدا))[١]، أمضى منها قرابة عامين في الجزيرة العربية، ثم عاد إلى مصر منقطعا إلى نفسه وكتبه، معتزلا الحياة العامة إلى هذا الشعر الجاهلي وحده، واستمر في عزلته تلك عشر سنين، فكان كما قال ((أحمل معولا بعد معول، أحطم عن عقلي الأغلال التي طوقني بها علم أعدائي المَلَوَّثُ))[٢] منطلقا من هذا الشعر الجاهلي إلى البحث في أغوار هذا «البيان» الذي أكرم الله به آدم عليه السلام وذريته من بعده، فاصطفاه به وميزهم به دون سواه عن غيرهم من المخلوقات، لأن ذلك البيان والقدرة على البيان[٣] هما اللذان أطلقا بقية القدرات والطاقات في جسم الإنسان لتنطلق وتعمل عملها المباين كل المباينة لما عند بقية المخلوقات، ولولاهما لكان الإنسان واحدا من هذه الكائنات التي تمشي على أربع ولم يختلف عنها حينئذ في شيء، فلولا هذا «البيان» لخرب البنيان كما يقول الشيخ رحمه الله.

و«قضية الشعر الجاهلي» التي كانت سببه في هذه العزلة وهذه الرحلة الطويلة الشاقة المثيرة كما وصف، مرتبطة ارتباطا وثيقا بقضية أخرى هي من أعقد ما عاناه العقل البشري، أعني «قضية إعجاز القرآن»، مما يعني أن الشك في صحة الشعر الجاهلي هو بالضرورة يمس قضية «الإعجاز» أيضا، فإذا تم إسقاط الشعر الجاهلي من التاريخ العربي بمرة، سواء كان إسقاطا مبنيا على علم أو على غير علم فذلك يعني من وجه آخر

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٠٦.

(٢) أباطيل وأسمار، ص ٣١٤.

(٣) سنتطرق للحديث عن بعض أسرار هذا البيان كما يراه الشيخ في الباب الثاني، لأنه مرتبط ارتباطا وثيقا بمنهج التذوق، بل إنه هو مبدأ التذوق وغايته، ومن القدرة على الإبانة والقدرة على الاستبانة خرج لفظ التذوق ليدل على القدرة الثانية مشتملة على الأولى في بعض جوانبها.

إسقاط الحقيقة التي قام عليها « إعجاز القرآن». وإذا بطلت هذه الحقيقة بطلت الرسالة كلها، فلا يبقى للإسلام إلا رسوم لا تثبت حقا ولا تدفع باطلا.

فالطريق إلى تبَيُّنِ وجه الحق في أمر الشعر الجاهلي محفوفة بالمخاطر من كل وجه، تقتضي أناة وصبرا وتمحيصا وتعمقا في الفهم والتحليل، وتقتضي استقصاء شاملا لكل جوانب هذه القضية. ولست هنا بصدد التفصيل في هذه القضية، فذلك يطول ويتشعب، وإنما يعنيني في هذا الباب أن ألخص القول في رحلته هذه، وأختصر الحديث فيه عن أهم جوانب هاتين القضيتين، وأوضح التداخل بينهما والتكامل الذي كان خلاصة ما أفضت إليه رحلة الشيخ رحمه الله، ليكون واضحا بعد ذلك معنى افتتاحنا لهذا بقولنا إن الطعن في الشعر الجاهلي هو طعن في الحقيقة التي قام عليها إعجاز القرآن، وفي الطعن إسقاط لحقيقة القرآن والرسالة والإسلام كله.

وبيان ذلك أن مدار الإيمان بآية القرآن العظيم هو التذوق والبيان والتبين، فإنه حين نزلت أول آيات القرآن العظيم –وقليل القرآن في ذلك وكثيره سواء– لم يكن يطلب الرسول الأكرم ﷺ من الناس إلا أن يستمعوا له فيحسنوا الاستماع ويميزوا بين كلام الله وكلام البشر، فمن أحسن الاستماع، تبين له تبينا واضحا أن هذا الكلام مباين كل المباينة لكلام البشر، خارج عن طوق أهل البيان وطاقتهم وقدرتهم، خارق لكل ما هو معروف لديهم من أصناف البيان، فإما آمن بعدَ ذلك وإما كفر. ومعنى هذا أن هذه المطالبة العجيبة التي تقتضي من هؤلاء القوم أن يحسنوا الاستماع، ثم يتبينوا الفرق، ثم يحكموا هم بأنفسهم تحمل بين طياتها أمورا جليلة القدر، وأعظمها هو أن تُوكل مهمة الحكم على ما يحاكَمُون إليه إلى أنفسهم لا إلى أحد سواهم، مما يدل على أمانتهم في الحكم وصدقهم في تحمل البيان وتذوقه، فإن تعجب فاعجب لأمر القوم مع القرآن العظيم ((فقد قرعهم وعيرهم وسفه أحلامهم وأديانهم، حتى استخرج أقصى الضرورة في عداوتهم له. وظل مع ذلك يتحداهم فنهتهم أمانتهم على البيان عن

معارضته ومناقضته، وكان أبلغ ما قالوه: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال ٣١] ولكنهم كفوا ألسنتهم فلم يقولوا شيئا؛ هذه واحدة. وأخرى: أنه لم ينصب لهم حكما، بل خلى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له، ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان، فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة))[1]. فإذا تأملت هذا وجدته يقتضي أن تكون هذه اللغة التي نزل بها القرآن تحتمل مفارقة عظيمة بين كلامين: أحدهما هو الغاية فيما تطيقه قوى البشر من أهل البيان، والثاني يقطع هذه القوى ببيان مباين لكل ما ألفت من قبل في بيانها العالي الذي عرفت به. وهذا الأمر يتوقف على ست بابات لا يكون من غيرها لهذه المطالبة معنى:

١- سبيل هذه المطالبة أن يحسن المكلفون الاستماع، حتى يتبينوا الفرق بين كلام الله وكلام البشر، إذ الفرق لا يُتوصل إليه إلا بالإقبال عليه إقبالا كاملا بكل الجوارح، وترك كل ما قد يحول دون ذلك، وإنما يحسُنُ الاستماع حين تصغي الجوارح كلها ويشترك القلب والعقل والأذن في التلقي والإدراك والتحليل.

٢- لا يمكن أن يُطَالَبَ هؤلاء بالتمييز بين الكلامين إلا وهم قادرون على ذلك مستطيعوه، فمعنى هذا أن لهم قدرة على التمييز ظاهرة متفشية فيهم ما دامت الدعوة تشمل جميع المكلفين.

٣- لا يمكن أن تكون هذه القدرة إلا بعد مراس طويل، وزمن متقادم، تصقل فيه هذه التجربة وتتطور، حتى تصير في حالتها التي هي عليها عند هؤلاء قبيل نزول القرآن الكريم، أي أن المطالبة لم تكن إلا بعد أن استوت هذه القدرة واستحكمت في نفوسهم.

---

(١) فصل في إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر، في مقدمة كتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر – دمشق، ط ٤، ١٩٨٧. ص ٣٣

٤ - غير ممكن أن يكون التذوق على الحال التي ذكرنا إلا أن يكون لدى هؤلاء كلام يمارسون عليه التذوق، ويميزون صحيحه من فاسده، وعاليه من سافله، وأحسنه من حسنه، فهو عتيد وافر منتشر.

٥ - كان أكثر ما يمارسون عليه التذوق شعرا متعدد الأغراض والمعاني، يعبرون به عن حياتهم في جميع مناحيها، ويتذوقونه في بيانه، ويؤثر فيهم تأثيرا خاصا بعيد الأثر في نفوسهم، كانوا قد بلغوا في تجويده وتحسينه والاهتمام به الغاية، وتعلقوا به تعلقا شديدا حتى إنهم كانوا يعبدون البيان أكثر مما يعبدون الأوثان.

٦ - لا بد أن يشمل هذا التذوق جميع الناس ، ويكون مصاحبا لهم في حلهم وترحالهم، ويكون فعل ذكرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم، وحرهم وعبدهم، وشيبهم وشبابهم، وينبغي أن يستغرق جميع المكلفين، وإلا لم يكن ثمة معنى لهذه المطالبة.

فإذا كان هذا صحيحا -وهو صحيح بإذن الله-، فإن هذا الشعر الجاهلي له مكانة خاصة وقيمة عظيمة في ثبوت الفرق بين كلام الله وكلام البشر الذي هو مدار الآية، وأعظم منزلة تبوأها: ((أن يكون مادة لدراسة البيان المفطور في طبائع البشر، مقارنا بهذا البيان ، الذي فاق طاقة بلغاء الجاهلية، وكانت له خصائص ظاهرة، تجعل كل مقتدر مبين، وكل متذوق للبلاغة والبيان، لا يملك إلا الإقرار له، بأنه من غير جنس ما يعهده سمعه وذوقه، وأن مُبَلِّغَهُ إلى الناس نبي مرسل، وأنه لا يطيق أن يختلقه أو يفتريه لأنه بشر لا يدخل في طوقه إلا ما يدخل مثله في طوق البشر، وأنه لو تَقَوَّلَ غير ما أُمِرَ بتبليغه وتلاوته بَانَ للبشر كذبه))[1]. فإذا كان هذا الشعر بهذه المنزلة السامية، وكان لا غِنَى

(١) فصل في إعجاز القرآن/ / الظاهرة القرآنية، ص ٣٧ - ٣٨.

لأحد عنه إن أراد أن يحقق مدار الآية في نفسه فيؤمن ويتبين فإن الطعن فيه وفي صحته وثبوته، هو طعن في عمق حقيقة القرآن الكريم، وحقيقة الإعجاز.

ولكن هذا الشعر الجاهلي يحمل في نفسه دلائل صحته، فليس كونُهُ أساسا من أسس البيان الذي عليه مدار آية القرآن فقط هو ما يلبسه لباس الصحة والثبوت، وإن كان ذلك كافيا وحده، ففي الشعر الجاهلي قدرة خارقة على البيان لا تتوفر في أي شعر جاء من بعده، تكشف لكل من تطَلَّبَها وتقصاها واستخرجها بتذوقه النافذ ((عن روائع كثيرة لا تُحَدُّ، وإذا هو [أي الشعر الجاهلي] علم فريد منصوب لا في أدب العربية وحدها، بل في أدب الأمم قبل الإسلام وبعد الإسلام، وهذا الانفراد المطلق، ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم، هو وحده دليل كافٍ على صحته وثبوته))[١]. وهنا يتحد الطريق إلى الإدراك الحقيقي لمدار آية القرآن، أي تبَيُّنُ الفرق بين كلام الله وكلام البشر وتقريره في النفس تقريرا حقيقيا على طريقة الذين نزل القرآن عليهم والطريق إلى إثبات صحة الشعر الجاهلي من خلال ذاته لا من خارجه. ولبلوغ ذلك ((وجب أن ندرس هذا الشعر دراسة متعمقة، ملتمسين فيه هذه القدرة البيانية التي يمتاز بها أهل الجاهلية عمن جاء بعدهم، ومستنبطين من ضروب البيان المختلفة التي أطاقتها قوى لغتهم وألسنتهم. فإن تم لنا ذلك، فمن الممكن القريب يومئذ أن نتلمس في القرآن الذي أعجزهم بيانه، خصائص هذا البيان المفارق لبيان البشر))[٢].

فهذه هي العلاقة المتبادلة بين قضيتي «إعجاز القرآن» و«قضية الشعر الجاهلي» اختصرْتُهَا في هذا الكلام الوجيز القاصر عن إيصال المعنى كله على الوجه الذي يليق

(١) فصل في إعجاز القرآن/ / الظاهرة القرآنية، ص ٣٥.

(٢) فصل في إعجاز القرآن/ / الظاهرة القرآنية، ص ٣٦.

به، ولكنه ربما دل بعض الدلالة على العلاقة، على أن بيانها الكامل –وبيان القول في الإعجاز، وما يتعلق به– تجده في ما كتب الشيخ رحمه الله في «مداخل إعجاز القرآن» و«قضية الشعر الجاهلي»و«فصل في إعجاز القرآن» –من مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية للأستاذ مالك بن نبي رحمة الله عليهما– بصفة خاصة، وإلا فالكلام عن جذور القضية وامتدادها تجده في أغلب ما كتب الشيخ عن الشعر الجاهلي في مختلف كتبه.

فهذا جوهر القضية عند الشيخ، أفضى به إليه سفره الطويل الذي ذكرناه آنفا، وجمع شتاته من قضايا متشعبة تفرعت عن «قضية الشعر الجاهلي» وما يتصل بها من دسائس المستشرقين، ولغو المستخفين، وجهل الجاهلين، وانضاف إلى ذلك ما يتعلق بأخطاء بعض العلماء المتقدمين في تأصيلهم لبعض المسائل، وفي بعض ما اجتهدوا فيه فأخطأت اجتهاداتهم الصواب. وكل هذه المسائل والقضايا الدائرة في حلقة «الشعر الجاهلي» كانت محور رحلة الشيخ أثناء عزلته وبعدها إلى أن توفاه الله.

ومن أظهر القضايا المثارة في الشعر الجاهلي، وشغلت بال الشيخ رحمه الله حتى انكشف له وجه الحق فيها، وتبين له الصواب بعد الجهد يلوح كفلق الصبح:

١– مسألة صحة الشعر الجاهلي، والشك في ثبوته/ وهي دعوى وضع الشعراء الإسلاميين للشعر ونسبته للجاهليين، وما يرتبط بها من اختلاق الرواة كمثل ما يروى عن خلف الأحمر وحماد وغيرهما. وهي القضية التي أثارها المستشرق "ميرجليوث" كما ذكرنا، وتولى كبرها من بعده الدكتور طه حسين في الجامعة، ثم أصدر "حاشيته" تلك من بعد بعنوان: "في الشعر الجاهلي".

٢– مسألة الانتحال في الشعر الجاهلي الذي يقصد به الاختلاف في نسبة الشعر والخلط في تلك النسبة، وليس الانتحال هو الوضع كما يزعم كثير من الدارسين، وقد بين الشيخ ذلك في كتاب "نمط صعب ونمط مخيف" على وجه الخصوص.

٣- مسألة عمر الشعر الجاهلي، وكان الجاحظ أول من اقتحم هذا الباب، وقرر بعد عملية حسابية أن عمر الشعر الجاهلي لا يتجاوز مائتي سنة على الأكثر، وتبعه الناس في رأيه، فلما جاء المستشرقون جعلوا من هذا الكلام مدخلا من مداخل الطعن في الشعر الجاهلي، وهو من مداخل أصحاب مسألة الوضع. وقد رد الشيخ هذا الرأي في كتابه «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام».

٤- دعوى ضعف الشعر في صدر الإسلام، وهي دعوى قديمة جدا كان ابن سلام الجمحي من أول من ذكرها، ثم جاء في عصرنا من حاول أن يجعل كلام ابن سلام دليلا على عدم اهتمام المسلمين بالشعر بعد إسلامهم، مما يعرضه للضياع، ليكون ذلك مدخلا إلى الحديث عن الوضع... وقد بين الشيخ بطلان هذه المسألة أيضا في كتابه الذي ذكرنا من قبل "قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام"، ويمكن أن ندخل مع هذه المسألة مسألة أخرى قريبة منها، هي "مسألة القدر الذي وصلنا من الشعر" و"الشعراء الذين بلغنا شعرهم" وقد تحدث عنها ببعض التفصيل في الكتاب نفسه.

٥- مسألة اختلال ترتيب الأبيات في القصائد، واختلاف الروايات في الطول والقصر، واختلافها في بعض الألفاظ، واختلاط بعض القصائد ببعض إذا كانت من بحر واحد وموضوع واحد، وهذه قضايا متشابكة قد فصل الشيخ الحديث عنها في كتاب "نمط صعب ونمط مخيف".

٦- مسألة انعدام الوحدة العضوية في الشعر الجاهلي، وهي ثرثرة فارغة يلوكها من لا بصر له بالشعر وبتذوقه، وقد أبطلها أبو فهر رحمه الله في كتابه المذكور آنفا "نمط صعب ونمط مخيف".

هذه بعض المسائل الشائكة المتعلقة بالشعر الجاهلي، هي التي كانت خلاصة رحلته في البحث عن وجه الحق في الشعر الجاهلي، وفي الطريق إليها استخرج الشيخ ركائز منهج التذوق واستقامت له أركانه، فمهد طريقه وعبَّدَها، وجمع شتاته، ولاءم بين أوصاله، حتى صار على الصورة التي هو عليها حين أظهره للناس مطبقا في كل ما كتبه.

ولنختم القول في هذا الباب بحديث الشيخ نفسه عن هذه الرحلة، إذ يقول: ((بدأت بإعادة قراءة الشعر العربي كله، أو ما وقع تحت يدي منه يومئذ على الأصح، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأني أقلبهما بعقلي، وأرُوزُهُمَا بقلبي، وأجُسُّهُمَا جَسًّا ببصري وبصيرتي، وكأني أريد أن أتحسَّسَهما بيدي، وأسْتَنْشِيَ ما يفوح منهما بأنفي، وأَسَّمَّع دبيب الحياة الخفي فيهما بأذني ثم أتذوقهما تذوقا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئا قد أخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته، وأتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوا أو سهوا تحت نظم كلماته ومعانيه، دون قصد منه أو تعمد أو إرادة.

لا تقل لنفسك: "هذا مجاز لفظي"! كلا، بل هو أشبه بحقيقة أيقنت بها، لأني سخرت كل ما فطرني الله عليه، وأيضا، كل معرفة تُنال بالسمع أو البصر أو الإحساس أو القراءة، وكل ما يدخل في طوقي من مراجعة واستقصاء بلا تهاون أو إغفال سخرتُ كل سليقة فطرتُ عليها، وكل سجية لانت لي بالإدراك، لكي أنفذ إلى حقيقة "البيان" الذي كرم الله به آدم عليه السلام وأبناءه من بعده. وهذا أمر شاق جدا، كان، ومثير جدا، كان، ولكن المطلب البعيد هون عندي كل مشقة وضنى))[1].

***

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٠٦.